منهج شوقى ضيف
دراسة العصر العباسى

د. عصمة عبد الله غوشة

صدرت لأستاذنا الدكتور شوقى ضيف مجموعة «تاريخ الأدب العربى» فى سبعة أجزاء: العصر الجاهلى: ويُقصد به العصر الممتد قبل الإسلام بقرن ونصف تقريبًا، والعصر الإسلامى: ويقصد به عصر صدر الإسلام منذ بدء الدعوة الإسلامية، ويشمل حكم الخلفاء الراشدين، ويمتد حوالى نصف قرن، والعصر الأموى: ويُقصد به عصر حكم بنى أمية فى حوالى قرن من الزمان من سنة ٤٢ هـ - سنة ١٣٢ هـ، والعصر العباسى الأول من سنة ١٣٢ هـ - سنة ٢٣٢ هـ، والعصر العباسى الثانى من ٢٣٢ هـ - سنة ٣٣٤ هـ، وعصر الدول والإمارات، ويمتد من سنة ٣٣٤ هـ حتى بدء العصر الحديث فى جميع البلاد العربية، صدر منه الجزء الأول عن الجزيرة العربية، والعراق وإيران، والجزء الثانى عن مصر والشام، ويشير أستاذنا إلى القسم الثالث من هذا الكتاب، الذى سيخصصه - إن شاء الله - للمغرب، والأندلس. وقد بيّن فى كل جزء من ملامح العصر المحددة لأدوار فكره، ملامح تبدأ بالمكان وتمتد فى الزمان، تكشف عن هوية كل عصر، وما يختص به وما يميز فكره وأدبه.

هذه المجموعة من تاريخ الأدب العربى تُعدُّ دراسة جديدة، ولم يسبقه أحد من الباحثين إلى دراسة تاريخ الأدب العربى، بهذا الشكل الشمولى الموسوعى.

العصر العباسى الأول، والعصر العباسى الثانى، جزءان متكاملان متتابعان مترابطان، يحدد فيهما الزمان والمكان، فيلقى الضوء على الإطار العام للعصرين، فالعصر العباسى الأول يبدأ سنة ١٣٢ هـ، من قيام الدولة العباسية، إثر المعركة المعروفة بين أبى مسلم الخراسانى داعية العباسيين، ومروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، انتهى بعدها حكم الأمويين، ويستمر حتى سنة ٢٣٢ هـ بانتهاء حكم الخليفة الواثق، أما العصر العباسى الثانى فيبدأ من سنة ٢٣٢ هـ بتولى المتوكل الخلافة، ويرى المؤلف أن هذا العصر يمتد حتى سنة ٣٣٤ هـ، مع أن الدارسين

يجعلون العصر العباسي الثانى يمتد إلى نهاية الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ، وقد وضح رأيه فى هذا التحديد الزمانى فى مقدمة عصر الدول والإمارات: «وكان المؤرخون للأدب العربى، يدخلون منه نحو ثلاثة قرون فى العصر العباسى الثانى منتهين به حتى سنة ٦٥٦، حين أغار قطعان التتار على بغداد.. وكل ذلك تصور مخطئ لأن سلطان الخلافة العباسية تتقلص ظلاله منذ سنة ٣٣٤، ولا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه فى كثير من الأمر سوى بغداد.. بحيث يصبح من الخطأ أن تنسب القرون الرابع والخامس والسادس حتى منتصف السابع إلى الخلافة العباسية»[١].

ويتناول المؤلف فى الكتابين الحياة السياسية أولاً، فيتحدث عن الثورة العباسية، والنظم السياسية، والإدارية، ونشاط العلويين، والخوارج وأحداث مختلفة، وسيطرة الفرس، ثم ماكان من تحول مقاليد الحكم من الفرس إلى الترك، الذين لم تكن لهم ثقافة أو حضارة، أو معرفة بالإدارة والنظم السياسية، ففسدت الأمور فسادًا شديدًا، وابتدأت بعض الولايات تستقل بالحكم.

ثم انتقل إلى الحياة الاجتماعية، فشرح ما يتعلق بالحضارة والثراء، والترف والنعيم، وأثر الرقيق، والجوارى، والغناء، والمجون الشعوبية والزندقة، والزهد والتصوف.

وازدهرت الحياة العقلية والثقافية، نتيجة الامتزاج الجنسى واللغوى والثقافى مع الأعاجم، وبما نقل وترجم من ثقافات مختلفة، يونانية وفارسية وهندية، فارتقى العقل العربى وشارك فى تطور العلوم ووضعها، كالعلوم الطبية، والهندسية، واللغوية، والتجديد فى الموضوعات، والأساليب والأوزان والقوافى، بتأثير الحضارة والثقافة، ثم درس أعلام الشعراء دراسة نقدية تاريخية تحليلية، وعرض لشعراء آخرين من شعراء سياسة ومديح وهجاء، أو شعراء غزل وزهد وتصوف، ولهو ومجون، وزندقة، واعتزال، ونزعات شعبية.

ثم انتقل إلى النثر وتحدث عن تطوره وفنونه، وبحث أعلام الكتاب مبرزًا الدور الذى لعبه كل واحد منهم فى تطور النثر.

ويركز المؤلف فى دراسته الأدبية على بعض المحاور، التى يعتبرها أساسية فى دراسة الأدب، فإن خوض عالم الحياة الأدبية يتطلب خوض عالم الحياة السياسية، والاجتماعية، والعقلية، والثقافية، لما لها من تأثير فى الحياة الفكرية عامة والأدبية خاصة، فدارس الأدب يعنى بالأدب والتاريخ والتحليل، ومعرفة تاريخ الأمة، يساعد فى دراسة أدبها، ومعرفة تاريخ الأديب يلقى الضوء على دراسة أدبه، فنحن لا نستطيع أن نفصل الأدب عن المجتمع، أو الأديب عن بيئته،

---

(١) عصر الدول والإمارات المقدمة ص ٥

فالتاريخ يضيء الأدب، والأدب يوضح التاريخ، وعكوف المؤلف على هذه الجوانب لا ينبع من رغبة فى التوسع فى الدراسة دون مبرر، ولكن عن رغبة فى إيضاح العناصر التى تكون الرؤية المتكاملة للعصر، وهذا يعنى أن النص لا يفسر بمعزل عن مبدعه، مما يستتبع دراسة مكونات المبدع من عصره وسيرته.

١ - المحور التاريخى:

يبحث فى الثورة العباسية ضد بنى أمية، والدعوة السرية والدعاة، واستغلالهم العلويين، والفرس فى خراسان، مبينًا الدور الذى لعبه أبو سلمة الخلال الملقب (وزير آل محمد)، وأبو مسلم الخراسانى حتى استطاع أبو مسلم أن يهزم مروان بن محمد الأموى فى معركة الزاب، ويطارده حتى قتله، وأعلن قيام الدولة العباسية، وكان عبد الله السفاح أول الخلفاء العباسيين، ورأى العباسيون أن يتخذوا من العراق مركزًا لخلافتهم، فعلا نجمه بينما هوى نجم الشام، إذ أصبحت ولاية تابعة لها، واتخذ السفاح الهاشمية مقرًا له، ولم يلبث أبوجعفر المنصور أن بنى مدينة بغداد سنة ١٤٥ هـ، مبتعدًا عن الكوفة مركز العلويين. وعنى المنصور عناية بالغة ببناء حاضرته، فبنى قصره المسمى (قصر الذهب) وبجانبه بنى مسجدًا كبيرًا، وبُنيت دور كثيرة للدواوين، وأقطع قواده كثيرًا من القطائع داخلها، وابتنى لنفسه قصرًا صيفيًا على نهر دجلة سماه (قصر الخلد).

وما لبثت مدينة بغداد أن أصبحت أهم مدينة فى العالم العربى، فكثرت فيها القصور، والدور، والبساتين، والمتنزهات، وميادين اللعب بالصولجان، فزخرت بالحياة، وأصبحت قبلة الدولة العباسية أيام أن كانت الدولة العباسية قبلة العالم، ولم تزل بغداد عاصمة الدولة العباسية حتى استكثر المعتصم من الأتراك فى عسكره، وآذوا العامة، فابتنى لهم مدينة سامراء شرقى دجلة سنة ٢٢١ هـ، وظل الخلفاء منذ المعتصم يقيمون بها حتى سنة ٢٧٦ هـ، حيث تحولوا عنها إلى بغداد مرة ثانية، فأسرع إليها الخراب.

وكان قيام الدولة العباسية على أكتاف الجيوش الخراسانية إيذانًا بغلبة الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية والإدارية، وقد بلغ الفرس مرتبة عالية فى تنظيم الحكم، فنرى العباسيين يسارعون إلى التأثر بهم فى هذا التنظيم، تنتقل النظم السياسية بحذافيرها فى شئون الحكم، والدواوين، وتنظيمها، وتحديد أعمالها، فكثرت الدواوين فى العاصمة والولايات المختلفة، وانتقل نظام الوزارة، وأخذت تطلق على المستشار الأول للخليفة فى شئون دولته، وكان أكثر الوزراء من الفرس، وهو شيء طبيعى، إذ كانوا هم الذين يستأثرون بشئون الخلافة ويرقون إلى أعلى المناصب، ومنهم البرامكة، وآل سهل، وغيرهم.

واعتمد المعتصم على الترك واستكثر منهم، وبنى لهم مدينة سامراء، وكان هذا تحولاً خطيرًا فى تاريخ الدولة العباسية، فالفرس أصحاب حضارة، ومدنية، وثقافة بثوها فى الحياة العباسية، أما الترك فلم يكونوا يعرفون غير الغزو، والغارة، والصيد، والقتال، سيطروا على الخلفاء، فعزلوا، وولوا، وقتلوا، وسجنوا، وعذبوا من شاءوا، وبثوا الفتن بين أبناء البيت العباسى، فضعف الخلفاء وانغمسوا فى اللهو والترف، والبذخ وبناء القصور، فتدهورت الخلافة العباسية، كما سيطروا على السياسة، والإدارة، والنظم، فضعفت الدولة، وفسد الحكم وساد الظلم والقتل، والقمع والاختلاس، وانتشر قطاع الطرق، وانتفى الأمن والأمان، والاستقرار، فابتعدوا عن تعاليم الشريعة الإسلامية. واستقلت بعض الولايات، مثل خراسان على أيدى الظاهريين، ثم الصفاريين ومصر على أيدى الطولونيين ثم الإخشيديين.

وما أن قامت الدولة العباسية، حتى أخذت الخصومة تشتد بين الفرعين الهاشميين: العباسيين، والعلويين، وأيهما أقرب إلى الرسول ﷺ، فقد ظل العباسيون طوال دعوتهم السرية، يدعون للرضا من آل محمد مستغلين تأييد العلويين، وبعد قيام الدولة العباسية اعتقد العلويون أن العباسيين خدعوهم، وسلبوا منهم الخلافة، واغتصبوها، فقاموا بعدة ثورات، أولها: ثورة محمد بن عبد الله فى المدينة سنة ١٤٥ هـ وأخيه إبراهيم فى البصرة، ويفزع الخليفة المنصور، ويكاتب محمدًا مبينًا حق العباسيين فى الخلافة، ويشتد القتال بالكلمة والسلاح، ويقضى على ثورتهم، وتتابعت ثورات العلويين كثورة يحيى بن عبد الله بالديلم سنة ١٧٦ هـ، وقضى عليها الفضل بن يحيى البرمكى سلمًا دون قتال، ولكن العباسيين لم يقضوا على التشيع، بل أخذ يزداد سرًا وجهرًا.

أما الخوارج فقد ضعف شأنهم، وسرعان ما كان يقضى على ثوراتهم، وأخذت دعوتهم تضعف ضعفًا شديدًا؛ ومن أجل ذلك لم تترك أثرًا واضحاً فى الحياة الأدبية.

وقامت أحداث عديدة ضد العباسيين، قضوا عليها جميعًا، منها ثورة عبد الله بن على عن المنصور، وثورات أتباع أبى مسلم الخراسانى، الذى قتله المنصور خوفًا من أن ينقض عليه، وثورة رافع بن الليث زمن الرشيد، وهاجت الفتنة بين القيسية، واليمنية، فى الشام زمن الرشيد، ونكب الرشيد البرامكة سنة ١٨٧ هـ، ونشب الخلاف بين الأمين والمأمون، وثورة بابك الخرمى التى استمرت من سنة ٢٠١ هـ، حتى قضى عليها سنة ٢٢٢ هـ زمن المعتصم، وخيانة الأفشين، وثورة الزنج، الذين دخلوا البصرة، وخربوها وقد شغلت الدولة أربعة عشر عامًا استطاع الموفق زمن الخليفة المعتمد القضاء عليها سنة ٢٧٠ هـ، وبدأ نشاط حركة القرامطة وثوراتهم.

وعظمت فى عهد المهدى حركة الزندقة، فجدّ فى طلبهم وأسس ديوانًا لتعقبهم، واستمر

الخلفاء بعده يطلبون الزنادقة الذين ازداد نشاطهم وخطرهم، ويجعل المأمون المعتزلى من فكرة خلق القرآن عقيدة رسمية للدولة، فامتحن الفقهاء فيها، فكانت محنة قاسى منها الفقيه المعروف أحمد بن حنبل، الذى ثبت على رأيه، ولم يقر بخلق القرآن، واستمرت هذه المحنة زمن المعتصم والواثق، حتى جاء المتوكل وأبطل القول بخلق القرآن فانتهى تسلط المعتزلة على الدولة. واستمرت الحروب مع البيزنطيين فى الثغور الإسلامية.

٢ - المحور الاجتماعى:

يبحث فى المجتمع العباسى، ويبين تطور الحياة، بتأثير الفرس،فقد غلبت الحضارة الساسانية على المجتمع، فبنوا بغداد على شاكلة المدائن وقصر الذهب على طراز قصورهم، ذات الأواوين الضخمة، وتفننوا فى البناء والزينة، والزخارف والنقوش، والستائر والبسط والأثاث والتماثيل والتحف والأوانى،وفى الطعام والشراب، كما تأنقوا فى الجواهر والزينة، والطيب والملبس والثياب، متأثرين بالأزياء الفارسية، واهتموا بأدوات الترويح واللعب كسباق الخيل، وسباق الحمام الزاجل، ولعبة الصولجان والشطرنج والنرد والصيد بالبزاة، والصقور، والشواهين، والكلاب والفهود، وهذا يدل على البذخ والترف الذى كان يتمتع به الخلفاء، وأبناء البيت العباسى، والوزراء والقواد وكبار رجال الدولة، والتجار، وبعض الشعراء، والكتاب، والمغنين، والعلماء. أما الشعب فيكدح ويعيش فى بؤس وشقاء، ويتحمل أعباء الحياة ليملأ حياة هؤلاء بأسباب النعيم، ففئة تنعم بالأموال والحياة إلى غير حد، وفئة قُتر عليها فى الرزق، فهى تشقى إلى غير حد، واضطرب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم.

وكانت خزائن الدولة مملوءة تحمل إليها الأموال، والذهب والفضة من جميع، أرجاء الدولة. وتروى فى ذلك روايات كثيرة تبين مدى الثراء والترف والنعيم، ومظاهر الإنفاق على الجوارى، والقيان والمغنين والحفلات، والحاشية والأعوان، وتبين جود الخلفاء والوزراء والولاة، والقواد وكرمهم وعطاياهم للشعراء وغيرهم، ونفذوا إلى طائفة من الآداب، كآداب المائدة، واقتبسوا كثيرًا منها عن الفرس، وآداب المسامرة والمنادمة، ويرى المؤلف أن «هذا البذخ، وما صحبه من اعتصار الشعب هو السبب الحقيقى، فى كثرة الثورات على العباسيين، وخاصة فى إيران، ولعله السبب الحقيقى فى تعلق الناس بالمهدى المنتظر من أبناء على الذى ينشر العدل الاجتماعى بين الناس»[٢].

---

(٢) العصر العباسى الأول ص ٥١.

وبهذا التعليق نلاحظ أن المؤلف لا يصف الأحداث فى تعاقبها المتسلسل فقط، إنما ينتقل إلى التفسير، وإبداء الرأى، فى بعض الأمور أو الأحداث.

أما العامة فكانت تعيش حياة فقيرة قاسية، تعانى البؤس والضنك والكفاف، ملاهيهم الفرجة على الحوائين والقرادين، والاستماع إلى القصاص الذين يروون القصص الخيالية، والحكائين، الذين يحكون فى دقة لهجات سكان بغداد، ونازليها من أعراب، ونبط، وزنوج، وهنود وخراسانيين، وروم، ونلاحظ أن أكثر الشعراء والناثرين نشأوا فى ظل هذه الفئة الفقيرة، فبشار كان أبوه طيّانًا يضرب اللَّبن، وأبو نواس كانت أمه غازلة للصوف، وأبو العتاهية كان يعمل فى صناعة الجرار، ومسلم بن الوليد كان أبوه حائكًا، وأبو تمام كان أبوه عطارًا، والجاحظ كان يبيع السمك والخبز.

وكان الرقيق والجوارى والغناء من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية، فقد كثر الرقيق بسبب كثرة من كانوا يُؤسرون فى الحروب، فقد كانت تجارة النخاسة رائجة ورابحة، وكان رقيق النساء من الجوارى، أكثر عددًا من رقيق الرجال، وامتلأت بهن دور النخاسة والقصور والدور، وكن من أجناس وثقافات، وديانات، وحضارات مختلفة، فأثرن آثارًا واسعة فى أبنائهن ومحيطهن سواء كانوا خلفاء أو غير خلفاء، كما كان لهن أثر كبير على الشعراء الذين يرتادون دور النخاسة، وكان بعضهن مثقفات بفنون الأدب، وقول الشعر، فيملأن على الشعراء قلوبهم وعقولهم.

كما كان للغناء أثر كبير على الناس لما يدخله على نفوسهم من ابتهاج وسرور، ويبرز اسم إبراهيم الموصلى، وابنه إسحق، ويبرز فى الغناء ابنا المهدى إبراهيم وعليه، وتسابق الأغنياء على اقتناء القيان والمغنيات، ودفع الأثمان الباهظة فيهن، ومن لم يقتن جارية أو قينة يستطيع استئجارهن، ممن يرعاهن ويعلمهن، وكثيرات كن يضربن على الآلات الموسيقية، ويحسن الرقص، وقد أشاع هؤلاء الجوارى والقيان ضروبًا من الرقة والظرف، ظهر أثره فى الشعر والشعراء فشاعت الرقة فى ألفاظهم ومعانيهم.

وتأثر المجتمع العباسى بكل ماكان فى المجتمع الفارسى، من لهو ومجون، وساعد على ذلك ما وفره العباسيون من حرية مسرفة، فشاع شرب الخمر مجاهرة وتهالك الشعراء عليها، وأصبحت الخمريات من أهم موضوعات الشعر العباسى واشتهر فيها أكثر من شاعر مثل أبى نواس، ويقترن الخمر بالغناء والرقص مما دفع إلى كثير من المجون والعبث والإباحية، وكان المجتمع يزخر بالزنادقة والملاحدة، وغيرهم، فارتكبوا الآثام متحررين من كل قانون للخلق، والعرف والدين وهيأ لذلك الجوارى والقيان، اللواتى لا يشعرن بكرامة، ولا يولين التحفظ

والاحتشام أى اهتمام، فانتشر الغزل المكشوف الذى تهان فيه كرامة المرأة والرجل معًا، وظهر الغزل بالغلمانى يحط من كرامة الرجل، بدأه بشار ووالبة بن الحباب، وتوسع فيه أبو نواس.

وأحس الفرس بسيطرتهم على مقاليد الحكم والمجتمع فبرزت نزعة الشعوبية، وهى نزعة كانت تقوم على مفاخرة الشعوب الأخرى، الفارسية وغيرها للعرب مستمدة من حضارتهم، وماكان العرب فيه من بداوة، وحياة خشنة غليظة، وبشار أهم شاعر أشعل نيران هذه الخصومة الشعوبية.

وانتشرت الزندقة، ونشط الزنادقة فى نشر آرائهم وتعاليمهم الدينية المجوسية، وترجموا كتب النحل الفارسية، وتعقبهم المهدى والخلفاء من بعده، وقتل من ثبتت عليه تهمة الزندقة، كبشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس وغيرهما.

لقد شاع المجون بين بعض المترفين والشعراء، كما انتشرت الشعوبية والزندقة بين الفرس، وأقبل الناس وخاصة العامة على الوعاظ والزهاد والنساك والفقهاء، الذين كانت تكتظ بهم مساجد بغداد وغيرها من مدن الدولة العباسية، واقترن الوعظ بالقصص للعظة والعبرة وانتشر الزهد، والتذكير بالله، واليوم الآخر، والحساب، والثواب، والعقاب والدعوة إلى مكارم الأخلاق، ويبرز هنا اسم الشاعر أبى العتاهية، وبدأت مقدمات التصوف فى القرن الثانى الهجرى، وأخذ ينشط ويتسع فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى، يقول المؤلف بعد مناقشة بعض آراء المستشرقين «التصوف إسلامى فى جوهره، وفى نشأته، ونموه، وتطوره، وهو الرأى العلمى الصحيح»[٣].

٣ - المحور العقلى والثقافى:

امتزج العرب بالأعاجم عن طريق السكنى والمصاهرة وتسرى الإماء والولاء، واعتنق كثير من الأعاجم الإسلام، وأسرعوا إلى تعلم اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، وأخذت اللغة العربية تسود فى جميع أنحاء العالم الإسلامى بين المسلمين وغير المسلمين، إذ أصبحت جميع الشعوب عربية التفكير، والشعور، والثقافة، والأدب، والحضارة، كما أصبحت عربية اللغة، وأصبح جمهور الشعراء، والعلماء، والكتاب من الفرس وغيرهم كبشار وأبى نواس، وابن المقفع، وسيبويه وأبى حنيفة، وانتقلت ثقافات الشعوب المختفة إلى المجتمع العباسى، وكانت الثقافة الفارسية أبعد تأثيرًا فى المجتمع العباسى، بينما كانت الثقافة اليونانية أهم ثقافة أثرت فى الفكر العباسى، عن طريق الترجمة والنقل لا عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب.

---

(٣) العصر العباسى الثانى ص١٠٧.

وازدهرت الحركة العلمية ازدهـارًا كبيرًا، فقـد أذكى الإسلام جـذوة المعرفـة فى نفوس المسلمين، ودفعهم للعلم والتعلم، فنهض التعليم نهضة واسعة فى الكتاتيب والمساجد، والأسواق، وانتشرت صناعة الورق، ونُسخت الكتب، وتـأسست المكتبات العـامة والخـاصة، ودكـاكين الوراقين، وتسابق العلماء والطلاب على قراءة الكتب واقتنـائها، وظهـر العلماء المتخصصون المتعمقون فى علم واحد، والعلماء غير المتخصصين، الذين يُلمون بجميع الموضوعات ويسمون المسجديين، واستعان الخلفاء، والـوزراء، والقواد، والـولاة ببعض العلماء فى تأديب أولادهم، وأغدقوا عليهم الأموال.

ومما هيأ لازدهار الحركة العلمية، مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء والولاة والسُّراة، والعلماء والشعراء، ومحبىّ العلم، إذ حولت هذه إلى ما يشبه ندوات علمية، يتناظر فيها العلماء من كل صنف مثل، مجلس المأمون والبرامكة. وكانت الحرية العقلية والفكرية قد كفلت إلى أبعد غاية ممكنة.

وتعتبر الترجمة من أهم أسباب ازدهار الحركة العلمية، فقـد ترجم تـراث اليونـان عن اليونانية، والسريانية، والفارسية، فى الطب، والهندسة، والرياضة، والفلسفة والمنطق، والفلك، والكيمياء، والموسيقى، مثل كتاب المجسطى لبطليموس، وكتب أرسطو وأوقليدس، وجالينوس، وبقراط، وغيرها، وتراث الفرس عن الفارسية فى التاريخ، والدين، والإدارة، ونـظم الحكم، والأخلاق، والقصص مثل كليلة ودمنة، وكتاب مزدك، وتاريخ الساسانيين، وسير ملوكهم، وترجم تـراث الهنود عن الهنـدية والفـارسية، فى الـطب والأدويـة، والفلك، والحسـاب، والقصص، والأساطير والدين، مثل السند هند، وغيرها.

واهتم الخلفاء العباسيون بالترجمة منذ المنصور، وأنفقوا الأموال الطائلة، وللبرامكة فضل عظيم فى ازدهار الترجمة، إذ اعتنوا بإعادة ترجمة بعض الكتب، التى ترجمت قبـل عصرهم، لتكون أكثر دقة وإتقانًا، وتبلغ الترجمة قمة ازدهارها زمن الخليفة المأمون، إذ تحول بخـزانة الحكمة، التى أسسها الرشيد، لتكون مركزًا للترجمة إلى ما يشبه معهدًا علميًا، وألحق به المرصد المشهور الذى تخرج منه أهم العلماء فى ذلك العصر، ومنهم الخوارزمى مبتكر علم الجبر. وكانت الفلسفة اليونانية، والمعارف العلمية، أعظم ما حملت حـركة التـرجمة، ومضى العقـل العربى يفهمها، ويهضمها، ويسيغها، ويتمثلها، ويضيف إليهـا أو يصحح أخـطاءها فى علوم الـطب، والأدوية، والفلك، والرياضة، والهندسة والفلسفة، وأصبح العقلالعربى عقلًا علميًا راقيًا ناضجًا قادرًا على وضع العلوم المختلفة كالعلوم اللغوية والتاريخية والجغرافية، والدينية وظهر علم الكلام والاعتزال.

دراسة الشعر والشعراء:

١ - الشعر:

يبين المؤلف تمسك الشعراء بالنماذج القديمة، بتأثير اللغويين الذين سيطروا على الشعراء، ووصلوهم بالشعر القديم بكل خصائصه، ووضعوا بين أيديهم كل الأدوات، من مجموعات شعرية إلى دراسات لغوية، ونحوية، وصرفية وموسيقية عروضية، وفى الوقت نفسه يرى الشعراء ينفذون إلى التجديد فى لغتهم وأسلوبهم، الذى عرف باسم أسلوب المولدين، «وهو أسلوب قام على عتاد من القديم وعدة من الذوق الحضرى الجديد، أسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها التصريفية، والنحوية، ويلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة، بحيث تنفى عنها ألفاظ العامة المبتذلة كما تنفى عنها ألفاظ البدو الحوشية»(٤)، وبشار فى طليعة من أرسوا هذا الأسلوب المولد الجديد جاء بعده أبو نواس، وأبو العتاهية، ثم مسلم بن الوليد، وأبو تمام، ومن اقتدى بأساليب القدماء، فقد «سقطوا صرعى فى الميدان الفنى، إذ ازورّ عنهم جمهور الشعراء منضوين، تحت لواء بشار ومسلم وأبى تمام أو تحت لواء أبى نواس وأبى العتاهية»(٥).

كما جدد الشعراء فى موضوعاتهم، وصورهم متأثرين بما حولهم من ضروب ثقافات فارسية، ويونانية وهندية، ولعل اليونانية أعمق هذه الثقافات أثرًا فى الشعر والشعراء، بما نقل إليهم من فكر فلسفى، ومنطقى، ومقاييس وأدلة، مما ساعدهم على استنباط المعانى وتقيقها، وتوليدها؛ وكانت المعتزلة أكثر البيئات تأثيرًا بهذه الثقافات.

ويبحث المؤلف التجديد فى موضوعات الشعر المعروفة، من مديح وهجاء وفخر ورثاء وعتاب واعتذار، وغزل وزهد ووصف.

وقد تمسك بعض الشعراء بالمقدمة الطللية للقصيدة، وبعضهم جدَّد فى موضوع المقدمة فجعلها فى الخمر، أو وصف الطبيعة، أو بعض مظاهر الحضارة العباسية. وبعضهم تخلص منها، كما نرى فى موضوعات الهجاء، والغزل، والخمر، والمجون، والزهد، كما جدد الشعراء فى معانيهم وأفكارهم، ونظموا فى موضوعات جديدة، كالشعر التعليمى الذى أرسى قواعده أبان ابن عبدالحميد اللاحقى، واستمر الشعراء ينظمون فى الدين والتاريخ، والفلسفة، والقصص، والحكمة واللغة، والخمر، وظهر شعر التصوف فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى

وجدد الشعراء فى الأوزان والقوافى بتأثير الغناء، فكثر نظم المقطوعات فى الغزل والخمر،

---

(٤) العصر العباسى الأول ص١٤٦.

(٥) العصر العباسى الأول ص١٤٧.

والهجاء والزهد، وعلى الأوزان القصيرة، أو المجزوءة، واكتشف العباسيون وزنى المضارع والمقتضب، وجددوا فى قوافيهم، فظهرت المزدوجات فى الشعر التعليمى، والرباعيات، والمسمطات، من مربعات، ومخمسات، مما مهد لظهور الموشحات فى الأندلس.

٢ - الشعراء:

يقسم المؤلف الشعراء إلى مجموعات:

(أ) أعلام الشعراء:

يلقى الضوء على أهم الشعراء الذين نالوا الشهرة فى عصرهم وبعده، وكتبت عنهم دراسات متعددة قديمة، وحديثة. يدرسهم معتمدًا على شعرهم مستعينًا بالمحاور التاريخية والاجتماعية والثقافية والعقلية، مبينًا أبرز خصائصهم الشعرية: الموضوعية، والفنية، فبشار زعيم المجددين، وأبو نواس أستاذ فن الخمرية فى الشعر العربى، وأبو العتاهية شاعر الزهد، ومسلم بن الوليد صاحب نزعة البديع، وأبو تمام المجدد فى صناعة الشعر، والبحترى الشاعر الرسمى للخلفاء العباسيين، وابن الرومى شاعر الهجاء والوصف، ممثلًا لما يقول بشعر الشاعر، مبينًا رأيه فى بعض النواحى الخاصة بهذا الشاعر أو ذاك، منصفًا بعض الشعراء مما يقال عنهم، يقول عن أبى تمام: «ويتسع التأثر بالفلسفة عنده حتى ليشيع الغموض فى كثير من أبياته، وهو غموض بهيج، كغموض الطبيعة فى الصباح والغروب؛ إذ يجلله دائمًا شفق يأخذ بالألباب، ونعجب إذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله كما حملوا على إكثاره من اللفظ الغريب، ومن التصاوير، وألوان البديع حتى قالوا: إنه أفسد الشعر، وهو لم يفسده بل هيأ له ازدهارًا رائعًا تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق، وبالشعر العربى قديمه وحديثه كما تسنده قوة ملكاته التى جعلته، يعد بحق حامل لواء الشعر العربى فى عصره بل جعلته، صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية»[٦].

(ب) شعر السياسة والمديح والهجاء:

لقد اختار موضوعى المديح والهجاء، لارتباطهما بالسياسة والحكام، وأصحاب الشأن، سجل الشعراء أهم الأعمال التى قام بها الممدوحون، ومجدوا شخصياتهم، وأضفوا عليهم الصفات التى تمثل المثالية الخلقية العربية والإسلامية، وبينوا موقفهم تجاه أعدائهم كموقف العباسيين من الخلافة، وحقهم فيها، والرد على الشيعة؛ فقد كان الشعر فى ذلك العصر وسيلة الدعاية الأولى، يتناقله الرواة، والمغنون والمغنيات وينشرونه فى أرجاء الدولة العباسية.

---

(٦) العصر العباسى الأول ص٢٧٨.

درس المؤلف شعراء الدعوة العباسية والخلفاء العباسيين، وشعراء الشيعة وشعراء البرامكة، وشعراء الوزراء والولاة، والقواد، وشعراء الثورات السياسية، وشعراء الهجاء.

(جـ) طوائف من الشعراء:

ويدرس - تحت هذا العنوان - الموضوعات الشعرية المنتشرة فى العصر، والمطبوعة بالطابع الشخصى أو الذاتى، يتناول فيه شعراء الغزل وشاعراته، وشعراء المجون والزندقة، وشعراء اللهو والمجون، وشعراء الزهد والتصوف، وشعراء الاعتزال، وشعراء الطرد والصيد، وشعراء النزعات الشعبية، ويُلاحظ أنه يدرس طوائف الشعراء المشهورين فى هذا العصر، عالمًا بحال المجتمع مدركًا مظاهر التطور والتغير، ففى العصر الأول كان شعراء المجون، والزندقة، فأصبحوا شعراء اللهو والمجون، لأن حدة الزندقة خفت، وذلك لانحسار سيطرة الفرس على المجتمع العباسى واشتداد شوكة الترك، وشعراء التصوف مع شعراء الزهد لأن التصوف ابتدأ يتخذ مكانه، بين موضوعات الشعر العباسى فى القرن الثالث الهجرى، ولم يكرر شعراء المعتزلة لأن سلطان المعتزلة انتهى رسميًّا زمن المتوكل، وأضاف شعراء الطرد والصيد، الذى انتشر بتأثير الحضارة والثراء والفراغ.

ويناقش المؤلف هذه الموضوعات من الناحيتين الموضوعية والفنية، ثم يدرس أهم شعراء كل فئة، ويثبت فى الهامش المصادر والمراجع الخاصة بكل شاعر يدرسه؛ لتكون عونًا للدارسين والباحثين.

دراسة النثر والناثرين:

١ - تطور النثر:

تطور النثر تطورًا كبيرًا جدًا أسلوبًا ولغة ومعنىً وفكرًا برقى الحياة العقلية والثقافية، ونقل ثقافات اليونان والفرس والهنود. وظهر هذا التطور فى بيئات المعتزلة والمتكلمين، والعلماء، والأدباء والفلاسفة، فظهر النثر العلمى، والفلسفى إلى جانب النثر الأدبى.

٢ - فنون النثر:

بحث المؤلف أولًا الخطابة بأنواعها السياسية التى ازدهرت فى أوائل هذا العصر، بسبب الحاجة الماسة إليها فى تثبيت دعائم الدولة، وبيان حقهم فى الخلافة، والرد على العلويين، ثم ضعفت بعد استقرار الحكم ولكنها كانت تظهر مع الفتن والثورات، وكذلك ضعفت الخطابة الحفلية، لأن الخليفة العباسى، ابتعد عن الرعية، فقد أدخل الفرس نظام الحجابة واستأثروا بالحكم، أما الخطابة الدينية فقد ازدهرت ازدهارًا كبيرًا على أيدى الوعاظ والنساك والفقهاء

والقصاص، استمدوا مادتهم من القرآن الكريم والحديث الشريف، وأقوال الصحابة والتابعين، ومن سبقهم من الوعاظ، كالحسن البصرى وغيره، يضاف إلى ذلك الإيمان الشديد بالله، والابتعاد عن متع الحياة الدنيا الزائلة، وأن ما عند الله خير وأبقى، ونشط الوعاظ من المتصوفة الذين كانوا يأخذون أنفسهم بمجاهدات عنيفة، ويعيشون حياة تقشف فى مأكلهم وملبسهم، فكان تأثيرهم فى الناس عميقًا، واهتم هؤلاء الخطباء بأساليبهم ومعانيهم وألفاظهم.

ثم انتقل إلى المناظرات، هذا الفن النثرى الذى ظهر وازدهر على أيدى علماء الكلام، وأهمهم المعتزلة، الذين انبروا للدفاع عن الإسلام وعن مبادئهم (التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والمنزلة بين المنزلتين) أمام أصحاب الملل والنحل، وبعض الفرق الإسلامية كالشيعة والمرجئة وغيرهم، وشغل المعتزلة الناس بمناظراتهم، وثقافتهم الواسعة، وبهروهم بقدرتهم على استنباط المعانى وتدقيقها وتفريعها، وبراعتهم فى الجدل والحوار والقياس والإتيان بالحجج والبراهين، والأدلة، والمقدمات، والنتائج، مع إتقان تام، وعلم دقيق باللغة وأساليبها، وألفاظها واشتقاقها، وصرفها ونحوها، وتفوقهم فى الإقناع وإفحام الخصوم، وتنوعت موضوعات المناظرات، فمنها ما كان بين الفقهاء فى أمور الدين، كمناظرة الشافعى ومحمد بن الحسن الشيبانى، أو بين علماء اللغة والنحو، والفلاسفة وأصحاب المنطق، وكأنما أصبحت المناظرات لغة العصر الفكرية حتى شكا الجاحظ من هذا، وانتقلت المناظرات إلى الكتب والرسائل، كما نرى فى كثير من كتب الجاحظ ورسائله وفى كتابى المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ، والمحاسن والمساوىء للبيهقى.

أما الرسائل فديوانية وإخوانية وأدبية، وأقبل الكتاب والطلاب على العمل فى الدواوين؛ لما توفره لهم من حياة كريمة، ورزق واسع وطموح للوصول إلى ولاية أو وزارة أو غير ذلك، ولم يكن العمل فى الدواوين سهلًا إذ على المتقدم أن يجتاز امتحانًا صعبًا، تمتحن فيه قدراته الفنية والعقلية، وتفنن الكتاب بتحميداتهم، وانتشرت التوقيعات، وامتازت بالدقة والإيجاز، وأشهر من وقع جعفر بن يحيى البرمكى، وتطورت الرسائل الإخوانية وازدهرت وتعددت موضوعاتها، ونافس النثر الشعرَ فى بعض الموضوعات، التى كانت خاصة به كالمديح والهجاء والوصف، وغيرها. ونفذوا إلى موضوعات جديدة مستمدة من تراث الفرس، كالحديث عن الصداقة مثلًا، وظهرت الرسائل الأدبية، فى مختلف الموضوعات سياسية وأدبية ودينية، وأخلاقية وعصبية، وتفوق كتاب الرسائل بأساليبهم ومعانيهم، وابتدأ السجع يدخل فى كتاباتهم حتى سيطر على أسلوب الكتابة النثرية، منذ أواخر القرن الثالث الهجرى، فأصبح سمة واضح فى أساليب الناثرين جميعًا.

٣ - أعلام الكتاب:

درسُ المؤلف أعلام الكتاب، ممن برعوا فى الترجمة والكتابة والتأليف، يعطينا فكرة عن حياة الكاتب مستفيدًا من المحاور التاريخية، والاجتماعية والثقافية، ويقف عند بعض القضايا التى توضح جانبًا من جوانب حياة الكاتب وإنتاجه، فمثلاً عندما يدرس ابن المقفع يقف عند قتله، ويناقش الأسباب التى دفعته إلى هذه النهاية، من كتاب الأمان الذى كتبه على لسان المنصور لعمه عبد الله بن على، مرجحًا هذا الرأى على تهمة الزندقة. ثم يدرس إنتاجه ترجمةً وتأليفًا معتمدًا على النصوص فى المقام الأول. كما استطاع أن يلم بجميع جوانب حياة الجاحظ وإبداعه، وألقى الضوء على شخصيته الفذة، وتحدث عن بيئته وثقافته، واعتزاله وأساتذته، وفنون نثره وأسلوبه، وما تميز به من موسوعية، واستطراد ومزج الجد بالهزل، وازدواج وموسيقى، فى إنتاجه من كتب ورسائل.

واهتم المؤلف ببعض القضايا الأدبية أو النقدية، أو اللغوية ناقشها ودرسها، ونقف عند بعض منها على سبيل التمثيل لا الحصر، مما يوضح منهج المؤلف فى عدم الاكتفاء بإعطاء المعلومات، وسرد الحقائق بل يقف ليناقش ويصحح ويبين رأيه، معتمدًا على الحجة والدليل.

١ - القديم والحديث:

وهو موضوع يستحوذ على اهتمام الدارسين فى كل العصور، فى العصر العباسى ظهرت ثلاث بيئات، تتناول كل واحدة البلاغة والنقد تناولاً متميزًا، بيئة اللغويين المحافظين، التى تعلى من شأن القديم، وتعتبره مثلاً أعلى، وقدوة، تقبل ما كان قديمًا، وترفض الحديث. وبيئة المتفلسفين المجددين، الذين كانوا يسرفون فى التجديد، ويرون أن تتخذ الفلسفة اليونانية، ومعايير اليونان البلاغية والنقدية أصولاً فى دراسة النصوص، ولم يقدر لآراء هذه البيئة أن تنجح، لأن اللغويين المحافظين استنكروا آراءهم وحاربوهم، وكان اللغويون أكثر عددًا وسيطرة، أما البيئة الثالثة من المعتزلة، فقد استطاعوا أن يقفوا موقفًا معتدلاً بين الطرفين المتعارضين، يقرءون ما لدى الأجانب، ويقرنونه إلى أنظار العرب فى البلاغة والنقد، ويخضعونه للذوق العربى الأصيل ومقاييسه، كما يظهر عند الجاحظ فى البيان والتبيين.

ونلاحظ أن الشعر القديم قد تمكن من نفوس الشعراء، وسرى فى قلوبهم، ومع إتقان الشعراء العباسيين اللغة العربية وكأنهم أعراب قد جاءوا من الجزيرة، فقد كان اللغويون لا يستشهدون بشعرهم مخافة أن يحدث اضطراب فى النموذج الشعرى القديم، وحتى يحتفظ بكل ما يمكن من صحة وسلامة ودقة، وفى رأى المؤلف «أن إهدار اللغويين لشعر العباسيين

بسبب حداثته خطأ فى التقويم؛ إذ الجودة الفنية لا تقاس بالقدم والحداثة، والشعر الجيد جيد فى كل زمان ومكان»[٧].

وعدَّ اللغويون على الشعراء المحدثين سقطاتهم، ويبين المؤلف رأيه بقوله: «وهى ليست سقطات بالمعنى الصحيح؛ إذ هى فى كثرتها إما ضرورات رآها الشعراء العباسيون فى الشعر القديم فقاسوا عليها، وإما لغات شاذة رأوها أيضًا فى هذا الشعر، وظنوا أن من حقهم مجاراتها، وإما اشتقاقات وأبنية، استحدثوها على ضوء المقاييس اللغوية التى تلقنوها، واقرأ فى كل ماتثره المرزبانى فى الموشح من هذه السقطات فستراه قلما يعدو هذه الوجوه الثلاثة»[٨].

ومما يدل على ذلك عند بشار، أنه قاس كلمه وَجَلَى على حَجَلى فخطّأه اللغويون، و «بشار محق لأن من حقه القياس، وإذا كان من حقنا أن نقيس فى شئون الدين، كما قرر ذلك الفقهاء المعاصرون له من أمثال أبى حنيفة؛ فأولى أن يقيس الشعراء فى أبنية اللغة واشتقاقاتها الصرفية»[٩].

ويستغرب المؤلف من وقوف يوهان فك، فى كتاب «العربية» عند بعض الأبيات التى وردت فى الموشح، لبشار وأبى نواس (أكثر العباسيين مآخذ) وغيرهما متخذًا منها دليلا على مخالفة العباسيين لقواعد العربية، ويقول «ولو أنه أنعم النظر فيما سجله الموشح على شعراء الجاهلية، والإسلام من مثل هذه الأحرف، لعرف أن العباسيين، لم يخرجوا عن قواعد الفصحى فى الصورة التى رسمها لهم اللغويون، وأن كل ما هناك أنهم قاسوا أشعارهم على أشعار الأقدمين، فأجازوا لأنفسهم ما كان يجيزه أسلافهم من بعض الضرورات وبعض الشواذ. وهم فى ذلك يتابعونهم ويصوغون على إرث منهم»[١٠].

وكان القديم والحديث، أو الأصالة والمعاصرة، من الأفكار المهمة التى شغلت المؤلف فى تتبعه تاريخ الأدب فى هذا العصر، شعرًا ونثرًا، يعطينا صورة واضحة عن مزج القديم بالحديث، وصلة الحديث بالقديم صلة اتصال لا انفصال، يقول: «وقد بسطت القول فى ازدهار الشعر العربى حينئذ ازدهارًا رائعًا؛ إذ أكبَّ الشعراء على العربية يتقنونها، ويتمثلون ملكتها وسليقتها تمثلًا دقيقًا نافذين بذوقهم المتحضر إلى أسلوب مصفى، يجمع حينًا بين الجزالة والرصانة، وحينا يجمع بين الرقة والعذوبة، وكان تأثرهم عميقًا بالثقافات المترجمة، وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة، مما أثار فى عقولهم، ونفوسهم كثيرًا من المعانى والخواطر التى لا تكاد تحصى، ودفعهم إلى التطور بموضوعات الشعر الموروثة تطورًا نلتمس فيه روح العصر، وخصب الفكر،

---

(٧) العصر العباسى الأول ص ١٤١
(٨) العصر العباسى الأول ص ١٤١
(٩) العصر العباسى الثانى ص ١٨٣
(١٠) العصر العباسى الأول ص ١٤٢

ورهافة الشعور، وأضافوا إليها موضوعات جديدة، بما نفذوا إليه من تحليل المعانى، والملاءمة بين أشعارهم وبيئاتهم المتحضرة، وحياتهم اليومية، وفتحوا صفحة لم تكن تخطر لأسلافهم على بال، هى صفحة الشعر التعليمى، الذى صاغوا فيه المعارف والتاريخ والأمثال، والقصص الحيوانى، منظومات طريفة، واكتشفوا للشعر أوزانًا لم تكن معروفة وأنماطًا من القوافى كانت مجهولة»[١١].

٢ - اللغة الفارسية فى الشعر:

يزعم يوهان فك أن الفارسية، أدخلت ضيمًا على العربية، معتمدًا على ما جاء فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ، من أن بعض الشعراء كانوا يتملحون بإدخال بعض الألفاظ الفارسية، فى أشعارهم، وأثبت قطعة لأحد الشعراء، اختلطت فيها الألفاظ الفارسية بالألفاظ العربية، ويرى المؤلف أن يوهان فك قد بالغ فى هذا الضيم، وهى مبالغة لا تسندها نفس النصوص، التى رواها الجاحظ؛ إذ كان الشعراء يسوقون فى أشعارهم أحيانًا بعض الألفاظ الفارسية تملحًا وتظرفًا، كما يلاحظ الجاحظ نفسه، أما بعد ذلك فإنهم يحافظون على ما استقر فى ملكاتهم من قوانين الصياغة العربية، وربما كان أكثرهم استخدامًا للألفاظ الفارسية فى شعره أبا نواس؛ إذ كان يأتى بها فى بعض خمرياته تعابثًا ومجانة.. ولم يكن يصنع ذلك دائمًا، إنما كان يصنعه فى الحين بعد الحين تملحًا وتندرًا.

كان يأتى على ألسنة الشعراء فى الندرة، وكثرتهم - على الرغم من أصولهم الفارسية - لم يتورطوا فى شىء منه؛ ومن أجل ذلك كان ينبغى أن لا يندفع باحث إلى القول، بأن السليقة العربية انتقصت فى نفوس العباسيين، فقد كانت أقوى من أن تنتقص حتى لدى من كانوا يحسنون الفارسية مثل أبى نواس»[١٢].

٣ - وتبدو دقة التعامل النقدى مع الظواهر الأدبية، فى مجال المقارنة بين آرائه، وآراء سابقيه، أو معاصريه؛ إذ يصحح بعض المعلومات التى استقرت فى الأذهان، فمثلاً تعلمنا وقرأنا أن أبا الأسود الدؤلى هو أول من وضع قواعد النحو، ويرى المؤلف أنه «شُبه للقدماء هذا، والحقيقة أنه لم يضع منها شيئًا إنما الذى وضعه حقًا، وكان أول واضعى نقط المصحف نقطًا يعين حركات أواخر الكلم فيه، أو بعبارة أدق يعين حركات الإعراب. فكان يضع نقطة فوق الحرف الأخير للكلمة إشارة إلى الفتحة، ونقطة بين يديه إشارة إلى الضمة، ونقطة تحته إشارة إلى الكسرة، وإذا تبع شيئًا من هذه الحركات غُنة أو تنوين نقط الحرف نقطتين، واختلط التعبير عن هذا الصنيع بكلمة العربية على بعض أصحاب كتب الطبقات فظنوا أنه وضع بعض أبواب النحو أو مسائله»[١٣].

---

(١١) العصر العباسى الأول ص ٥

(١٢) العصر العباسى الأول ص ١٤٣.

(١٣) العصر العباسى الأول ص ١٢١.

وفى معرض حديثه عن تطور النثر، وبيان دور اللغويين، والمعتزلة، والمترجمين، والمتفلسفة فى ازدهاره، وما ألفوه من كتب فى صناعة النثر ونقده، يصل إلى بيئة المترجمين، والمتفلسفة يقول: «ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة فى مجال النثر، والكتاب، هو الكتاب الذى نشر باسم «نقد النثر» منسوبًا إلى قدامة بن جعفر، وقد تبين فيما بعد أنه جزء من كتاب البرهان فى وجوه البيان لإسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب»(١٤).

وتتضح فى دراسة الدكتور شوقى ضيف للعصر العباسى بعض الجوانب:

١ - الطابع الدينى الإسلامى:

يرى المؤلف أن أهم أسباب التقدم هو الدين الذى يعتد به، ويُعلى من شأنه، فقد انتشر الإسلام فى هذا العصر، وأقبل الناس على اعتناقه، والإيمان بتعاليمه دون إكراه، وحصل الامتزاج بالدم والسكنى والولاء، يقول: «وبذلك استطاع الإسلام بتعاليمه السمحة أن يحدث امتزاجًا قويًا بين العناصر المختلفة، التى كانت تتألف منها الدولة العربية، وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأرض المفتوحة؛ إنما بلغة بامتلاك القلوب، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التى انبسط عليها سلطانه، تسلم، وإذا من بقوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بضرب من الأخوة الكريمة»(١٥).

ودعا الإسلام إلى العلم والمعرفة، فازدهر التعليم، وأقبل الناس على تلقى مختلف العلوم، دينية وغير دينية، فى الكتاتيب، والمساجد، والأسواق، ووضعت العلوم المختلفة، وصنفت الكتب المتعددة، مما أدى إلى ازدهار الحركة العلمية ازدهارًا عظيمًا.

ويفصل الحديث عن المساجد التى كانت أماكن عبادة وعلم، ويبين أهميتها ودورها فى الحركة العلمية، ويعطى صورة واضحة متحركة عن حلقات العلماء فى المساجد، حيث يختار كل عالم أسطوانة يستند إليها، ويتحلق حوله طلاب العلم، مستمعين ومستفسرين ومناقشين، ومنهم من كان مستمعوه كثيرين، فكان هناك مستمل يوصل كلامه إلى البعيدين عنه. وكان التعليم فى المساجد، دون قيود أو تكاليف، فانتشر العلم والتعلم، وأقبل الشباب على حلقات العلماء الدينية، والكلامية، وغيرها دون أى شرط سوى الرغبة فى العلم والتزود بالمعرفة.

ويركز المؤلف فى مواضع مختلفة على جهود المعتزلة، فى الدفاع عن الإسلام أمام أصحاب الملل والنحل، وبعض الفرق الإسلامية، معتمدين على الحجج والأدلة والبراهين، والقياس، واللغة، مقنعين، ومفحمين فى مناظراتهم، وجدلهم وحوارهم، ومع إعجاب المؤلف بالمعتزلة وإشادته

---

(١٤) العصر العباسى الثانى ص ٥٢٣.   (١٥) العصر العباسى الأول ص ٩٠.

obeikandl.com

بدورهم فى الدفاع عن الإسلام وفى نمو النثر، فإنه يرى أنهم لم يطبقوا الأصل الخامس من أصولهم تطبيقًا تامًا، فينقدهم بدافع من غيرته على الدين والمجتمع، يقول: «وأما الأصل الخامس، فيريدون به أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان على سائر المسلمين كل حسب استطاعته، وكان ينبغى وهم يعتنقون هذا الأصل، أن يدفعوا الدولة للضرب على أيدى المجان والفساق وأرباب الدعارة. وأيضًا كان ينبغى أن يصرخوا فى وجوه الخلفاء ضد طغيانهم، وظلمهم للعامة، وأن يصارحوهم بنظرية الإسلام فى الخلافة، وأنها ليست حقًا من حقوق أهل البيت؛ إنما هى حق الأكفاء من أبناء الأمة»[١٦].

ويبرز فى دراسة موضوعات الشعر تركيز الشعراء فى مديحهم على الصفات الكريمة التى دعا الإسلام إلى التحلى بها، من تمسك بشريعة الله من ورع وتقوى وعدالة لاتصلح الأمة بدونها، وفى فضل الجهاد وإعلاء كلمة الله ودينه فى المديح والرثاء، وتصوير البطولة والشجاعة والدفاع عن حمى الإسلام فى حروبهم مع الروم وغيرهم.

٢ - الموقف الأخلاقى:

ويظهر فى دراسة بعض الظواهر الأدبية، أو بعض الشعراء أو الكتاب، حيث يحاول التخفيف من حدة ظاهرة، أو موقف، أو تصرف، أو رأى، ويرفض المبالغة فى الحكم على شخصية شاعر أو كاتب وتصرفاته، مثلاً بعد أن تحدث عن حياة اللهو والمجون، والخلاعة والفساد الخلقى، ودور الفرس والجوارى والقيان فى شيوعه يقول: «وليس معنى ذلك أن الحياة فى بغداد، كانت كلها مجونًا وتهالكًا على الفجر والعهر؛ فإن تعدد الزوجات الذى أباحه الإسلام، وما أعطاه للرجل من حق تسرِّى الجوارى، كل ذلك كان يحول دون سقوط بغداد جميعها فى هوة الفساد، ومن أجل ذلك ينبغى أن لا نبالغ فى تصور موجة المجون، والعبث حينئذ، وأن نظن أن أهل بغداد جميعًا قد تخلّوا عن الحياة المستقيمة الطاهرة التى يحوطها الخلق والتقاليد والدين، إنما هو الكرخ حيث بيوت النخاسين والمقينين، ومن يفدون عليها من الفتيان والشعراء للشراب والمجون فى غير استخفاء ولا حياء»[١٧].

وفى حديثه عن الشعوبية ونشاطها وشعرائها وخطرها يقول: «وينبغى أن نعرف أن الروح العربية - على الرغم من هذه الشعوبية - ظلت شامخة مسيطرة يسندها الخلفاء، وزعماء العرب من الولاة والقواد ومستشارى الدولة، كما يسندها الفقهاء والمحدثون وعلماء اللغة، ورواة الشعر»[١٨].

---

(١٦) العصر العباسى الأول ص ١٣٥.
(١٧) العصر العباسى الأول ص ٧٣.
(١٨) العصر العباسى الأول ص ٧٨

ويخفف من خطر الزندقة والإلحاد معطيًا صورة صادقة عن الدين والمجتمع، يقول: «وليس معنى ما قدمنا من حديث عن الزندقة، والمجون أن المجتمع العباسى، كان مجتمعًا منحلاً أسلم نفسه للإلحاد والشهوات، فالإلحاد والزندقة إنما شاعا فى طبقة محدودة من الناس، كان جمهورها من الفرس، وكانت موجة المجون أكثر حدة، ولكنها لم تكن عامة فى المجتمع.. أما عامة الشعب فإنها لم تكن تعرف زندقة ولا مجونًا، أما من حيث الزندقة فإنها لم تكن تعادى الإسلام بل كانت مسلمة حسنة الإسلام، تهتدى بأضوائه، وتجرى على سننه»[١٩].

وفى دراسة أبى تمام وشعره، يشير إلى بعض النواحى التى تكون شخصيته، ويدافع عنه يقول: «وفى أخباره أن الحسن بن رجاء، لاحظ عليه أنه يصلى صلاة خفيفة لا يطيل فيها، وتوسع بعض الباحثين فى الخبر، فقالوا: إنه لاحظ عليه تقصيره فى أداء الفروض الدينية، وديوانه وما به من مواعظ دينية يشهد على صحة إسلامه. وأيضًا ففيه قصيدة وصف بها حجة حجها، وليس فى ديوانه وراء ذلك ما يصور أنه كان عابثًا أو ماجنًا، يلهو ولكن بقسطاس، وكان خصومه حاولوا أن يغضوا منه فزيفوا عليه الخبر السالف، طعنًا عليه، ومحاولة للنقص منه»[٢٠].

وعند دراسة الشعراء والكتاب يذكر فى الهامش المصادر والمراجع التى تفيد الدارسين، والطلاب، مع بيان الطبعة، ودار النشر، والجزء والصفحة وبذلك يقدم خدمة جليلة للباحثين.

ونستطيع أن نقول إن المؤلف قد بحث كل ما يتعلق بتاريخ الأدب فى هذا العصر، بحثًا مستقصيًا، شاملاً، مرتبًا مادته العلمية، ناقدًا، مدققًا محللاً، متذوقًا، كاشفًا عن عدد من الملامح الواضحة فى الشعر والنثر، مما يدل على معايشة علمية عميقة ورؤية شمولية، فنحن أمام باحث ذى منهج أكاديمى علمى، يحدد أهدافه، وما يريد أن يحققه، يوفر له المادة العلمية فى مصادرها ومراجعها، مع تفهم تام، ودقيق واع بحركة المجتمع بأبعادها المختلفة تاريخية، واجتماعية، وعقلية، وثقافية، والتى تتضح فى الإبداع البشرى شعرًا ونثرًا، ويعتمد على ذوقه الخاص فى الحكم على بعض الظواهر الأدبية فمؤرخ الأدب لا يمكنه أن يتجرد عن عوامل مكونات ذاته، فنراه يفصل الحديث فى بعض الموضوعات مبرزًا جوانبها وأفكارها وآثارها، ومميزاتها وأحيانًا يتناول موضوعات أخرى تناولاً سريعًا دون إهمال، لأنها لا تلقى لديه تقبلاً من نوع ما، ومع هذا استطاع ببصيرته النافذة وعلمه الدقيق أن يكون موضوعيًا فى دراسته وأحكامه، إذ نبذ الأحكام العاطفية ومجاراة الآخرين.

ونراه ناقدًا، محللاً، راصدًا، الظاهرة الأدبية، ويبدو حسه النقدى الدقيق فى مجال المقارنة بين آرائه، وآراء سابقيه، أو معاصريه. ويتضح منهجه النقدى المعتمد على استقراء، واستقصاء

(١٩) العصر العباسى الأول ص ٨٣.

(٢٠) العصر العباسى الأول ص ٢٧٦.

للفكرة من جميع جوانبها، ووقوف على كل ما قيل حولها. ثم محاولة الوصول إلى الرأى الفصل فيها، أو الأقرب إلى المنطق والمعقول، بدلالة التاريخ والأحداث.

ويبدو المؤلف فى دراسته عالمًا بكل ما يتعلق بالعصر، محيطًا بدقائقه وتآليفه فى العلوم المختلفة، خبيرًا بفنون الأدب وظواهره،مضطلعًا بعبء التفكير فى دقائقها، ملمًا بأدق خصائصها، دارسًا قصائدها ومقطوعاتها، مستشهدًا بشعر شعرائها ونثر ناثريها.

وبعد فقد جاءت دراسة أستاذنا الدكتور شوقى ضيف، موسوعية شاملة واضحة، مما يميز دراسته عن جميع الدراسات، حول العصر العباسى؛ فقد درس الباحثون ظاهرة معينة، أو تتبعوا الأدب فى فترة زمنية قصيرة محددة، أو فى مدينة أو من خلال شاعر، أو ناثر أو كتاب، كدراسات الدكتور طه حسين، والدكتور يوسف خليف، والدكتور محمد مصطفى هدار، والدكتور حسين نصار، وغيرهم.

ندعو الله أن يمد فى عمر أستاذنا الجليل، ويمتعه بالصحة، والعافية، ويوفقه فى إتمام مجموعة تاريخ الأدب العربى.

د. عصمة عبدالله غوشة
أستاذة الأدب العربى
كلية الآداب - الجامعة الأردنية